هدية أيلول: ومضة "خريف" لهدى كفارنة

هيفاء حمودة

خريف

حين لامست نسمات أيلول وجنتيها الذابلتين، أحست بيد خفية تبعث الرماد، تسرق فرح يوم ميلادها.

ربما نحن أمام ومضة خريفية بمعنى ما، يحملها إلينا أيلول بأجوائه المخاتلة المائلة إلى التبدل نحو مرحلة البرودة والخمود في تفكير البعض. وعند الآخرين، إلى الخوف منه، كفصل لما يحمله من دلالات نفسية واجتماعية.

تتألف الومضة من جملٍ ثلاث مروية بضمير الغائب، ومن منظور خارجي. تبدأ الحكاية مع هبوب نسمات أيلولية لامست وجنات الشخصية، وهي مداعبة شفيفة ومؤثرة في الوقت ذاته. لم نكن لنستدل على

الحالة النفسية أو الجسدية عند الشخصية لولا أن الراوي قد نقل لنا سمة من السمات الشكلية: وجود كلمة (ذابلة)، التي دلت على كآبة وحزن وُصفت بها الوجنات التي توحي للقارئ معاناة ما على مدى سنوات الحياة السابقة على هذا اليوم الفارق.. قد تكون هناك قصص مؤلمة أغلقت عليها الشخصية (المرأة) أبواب النسيان، لتمضي في حياتها، واستعادة الحزن في هذه اللحظة. (نسمات أيلول) التي تعني أن الأحداث المؤلمة كانت في مثل هذا الوقت من السنة، وهاهي تستعيدها، وقد دلت عليها الكاتبة بـــ (اليد الخفية)، وفي الزمن المحدد هو (يوم ميلادها)، ونظراً لما لهذا اليوم – عموماً – من أهمية في حياة الإنسان؛ فإن تأثير تلك الاستعادة للأحزان يبدد حالات الفرح، وينهي تجددها، ويعيد ألم ما كان خابياً.

في تأويل ثانٍ لهذه الومضة، فإنه يمكن أن نقول: إن الشخصية وصلت إلى خريف العمر، ويتمثل ذلك

باللفظ (أيلول) الذي يعني كما أشرنا سابقاً بداية فصل الخريف.. كما ويرمز أيضاً لوصول الإنسان إلى مرحلة حرجة من حياته (وجناتها الذابلة).. أما يوم الميلاد الأيلولي فقد حركت نسماته تلك الأشجان. ولعل (نسمات أيلول) هي الشخصية الثانية في هذا السرد الوامض، ولعلها اليد الخفية التي عبثت بالمشاعر والأحاسيس، وحولت تلك الذكرى إلى انتباهة مؤلمة، وإلى أن ذاك اليوم قد وصل العمر بالشخصية إلى خريفه، وهذا بحد ذاته يمثل قمة الخيبة والحزن لدى الكثيرين (سيما المرأة)، مما يحول هذا اليوم إلى وخز مؤلم..

لقد نجحت الكاتبة بتوظيف الأفعال والمفردات المكثفة لعرض موضوع كبير من خلال تلك اللحظة الفارقة التي تنبهت إليها الشخصية الرئيسية. في هذه الومضة نجد الألفاظ (أيلول.. وجنات ذابلة.. رماد.. سرقة الفرح)، ألفاظٌ لها دلالاتها التي وظفتها الكاتبة

لسرد حالة عايشتها الشخصية في لحظة مضيئة من حياتها، إنه (يوم ميلادها).